قصة : نجيبه العسال

اللص والحارس

متولى

راحت عينا الأم ترقب الابنة فى امعان وانتظار وضيق .. لقد مرت أكثر من عشرين دقيقة ، والابنة فى مكانها أمام المرآة .. انجرت حلالها أكثر من عمل من أعمال البيت وخطت الى ابنتها أكثر من ثلاث مرات تستحثها فى هدوء تارة وفى ثورة تارة أخرى لكى تفرغ من ارتداء ثيابها والابنة لا يبدو عليها الاستجابة لرجائها .

أخيرا اطمأنت الفتاة المقبلة على دور الشباب ، التى لم تتجاوز بعد عامها الرابع عشر — على ان مظهرها العام قد أصبح فى مستوى يؤكد شعورها بجمالها وأناقتها واستجابت لرجاء الأم التى بدأ ضيقها يتلاشى وهى ترقبها فى هدوء وحنان .. فقد تواعد على خيال الأم صورة مماثلة .. صورتها وهى فى الرابعة عشر من عمرها وفى مناسبة مثل تلك تماما التى تستحث ابنتها على الاسراع فى انجازها .

أسرعت الابنة وراء الخادم كى تشرف بنفسها على انصاج الكعك الذى قضت الأم دهاء يومها فى عمله استعدادا للعيد القادم وكانت تخشى عليه من استهتار الجار .. سارت منى سابحة فى خطواتها الفرحة ، وحمرة النشوة تكاد ترقص على وجهها الصبوح واصابعها تعبث فى خيلاء لتلمس شعرها الفاحم لمسات أخيرة سعيدة .

اوصدت الأم الباب وصورة ابنتها لم تفارق خيالها .. انها أمامها على الجدران وعلى قطع الأثاث وفى كل جوها المحيط وقد انبرى ذهنها فى نشاط فلم يكف عن القاء السؤال تلو الآخر يفسر كل هذا الاهتمام فى التأنق من جانب الشابة الصغيرة وتركت الأم الاجابة على أسئلتها جانبا وراحت تعمل فى همة كى تزيل الآثار التى أطاحت بنظام بيتها من اجراء عمل الكعك .

كانت خديجة فى الثانية والثلاثين من عمرها سمراء ممتلئة الجسم ذات ملامح واضحة صريحة صلبة الى حد كبير وان كانت نظرات عينيها الواسعتين المسلتين اللامعتين بجاذبية شديدة تؤكد أنوراء صلابتها تلك نفسا حساسة تفيض أنوثة وذكاء وتوثبا مطمورا — هى تعلم جيدا أنه يجب أن يظل مطمورا .. كان الناظر اليها لا يعطيها سنا أقل من الأربعين عاما وذلك لمظهرها الوقور وحديثها التى تتمسك بها حتى أصبحت وكأنها صفة أصيلة فى ذاتها .. كيف لا تتمسك بها وقد مر على زواجها أكثر من خمسة عشر عاما وزوجها السيد مصطفى السيد رجل مهاب الطلعة طويل القامة عريضها لايتكلم الا بحساب وتؤده

ولا يجالس أحد الا ويذكر ماضيه الحافل بالذكريات التى تؤكد بلوغه الخمسين عاما منذ وقت طويل والتى يردد فيها دائما بانه قد عاش كل لحظات شبابه وأنه قد شبع لهوا ومرحا واكتفى منذ زواجه بالحياة الهادئة الوقورة ·· فكيف تترك خديجة نفسها لتبدو أمام الناس أقل وقارا وجدية عن زوجها ·· لقد آلت على نفسها منذ تزوجته أن تطيعه فى كل ما يطلبه منها كما قالت لها أمها يوم زواجها حتى تغدو زوجة صالحة كما تقول التعاليم تماما ورأت هى ألا تطيعه فحسب بل يجب أن تكون كشخصه أيضا ·

ظلت خديجة تروح وتغدو فى نشاط لا يتفق أبدا مع بدانتها ·· نشاط يدهش دائما كل من يراها وهى تعمل فى بيتها ولم يدر أحد أنه نابع من ذاتها المتوثبة المطمورة ·· توقفت قدماها لحظات خاطفة عدة مرات بدون شعور أمام المرآة التى كانت تقف أمامها ابنتها منذ برهة وفى ذهنها شىء لم تتبينه جيدا ولم تستطع الامساك به ·· شىء مبهم كالضباب يلح عليها أن تقف أمام المرآة لكنها لا تستجيب له فى غمرة انشغالها لانجاز ما تبقى أمامها من أعمال ·

أخيرا لم تجد بدا من الثبات أمام المرآة دفعة واحدة وفى عزم أكيد ترى مايشدها اليها واقتربت منها قليلا وهى تتطلع بوجهها الذى كان يطل عليها ساكن الملامح تماما واتسعت عيناها أكثر حتى بان بياضهما وكأنه أضحى أكبر قليلا عما كان عليه ·· كانت المرآة التى تعلو الحوض الكائن فى بداية الردهة الموصلة الى دورة المياه ولذلك لم تر خديجة جسدها الممتلىء ·· لم تر الا خدودها المكتنزة وشفتيها الغليظتين حتى أنها لم تكن تظن أبدا أنه سيبدو هكذا فى يوم من الأيام ·· قد انتفخ حتى كاد يفقد معالمه وامتدت اصبعها فى خوف الى بشرة وجهها ·· انها ما زالت ناعمة وملتهبة ·· يسرى فيها اللون الخمرى ·· وفجأة سرى من خيالها وجه آخر تخيلته وقد التصق بجانب الوجه المكتنز على صفحة المرآة ·· وجه نحيل ·· رشيق أسمر اللون يعلوه جبين عريض · طالما قيل لها أنه دليل الذكاء ، وابتسمت خديجة ساخرة ·· الذكاء ·· أين هو الذكاء ·· لو كانت ذكية حقا كانت قد تركت نفسها تتبدل هكذا فى نحو خمسة عشر عاما·· وابتسمت مرة أخرى فى فخر ·· ولكن أليس من الذكاء أن جعلت نفسها وقد أصبحت صورة أخرى من زوجها حتى تشاركه حياته فعلا·· وتمعنت فى الصورة التى خرجت من خيالها ·· بالهاتين العينين النجلاوين وتلك الابتسامة اللامعة المتألقة واتسعت حدقتاها أكثر ثم حاولت الابتسام لترى هل ما زالت ابتسامتها على نصيب من التألق كما كانت ولم تطاوعها شفتاها فملت أن تتجه بنظرتها الى هناك الى حجرة زوجها السيد مصطفى السيد ·· انها دائما قبل أن تختلى بنفسها لا بد لها من القاء نظرة على حجرته وعلى سريره بالذات لترى ان كان مستغرقا فى النوم كعادته دائما كلما كان فى المنزل أو مضجعا فقط بجسده الضخم ويبدو كالنائم لكنه متنبه تماما لكل حركة تأتى بها وأحست راحة ولكن بعد أن ألقت بنظرتها الخاطفة على السرير الخالى ·· انها تعلم جيدا أنه ليس بالبيت فهو الآن بالمسجد الحسينى كعادته كل عام فى الأيام الأخيرة منشهر رمضان وانهما

الوحيد أحمد البالغ من العمر اثني عشر عاما .. انه معه أيضا لكنها أبدا لا تستطيع أن تنطلق بأفكارها قبل أن تخطف نظرة سريعة على السرير وان كان خاليا .

أحست خديجة براحة كبيرة وتنهدت وهي ترقب أنفاسها في مرآتها وتبتسم في أسى .. وتحنو على الوجه الرشيق حتى يعود أمامها مرة أخرى .. وانتشر سريعا وهو يبتسم مواسيا.. وانفرجت شفتا خديجة لتقارن بين الابتسامتين ثم تنهدت في شيء من الرضا .. أن تألق .. ولمعت عيناها فجأة .. وأحست بالبركان الذي يثور دائما في صدرها وتخمده في الحال وتنهدت .. ما أحوجها الآن الى الهدوء روحها ..سرعان ماانتشرت صورة أخرى تشاركها مرآتها .. انها الصغيرة منى في ثيابها الأخيرة ـ أمام المرآة قبل خروجها منذ لحظات ، واستعادت لمحاتها تماما وصعدت الأسئلة الى دمها مرة أخرى لكنها لم تجبها بصورة خديجة المكتنزة ذات الاثنين والثلاثين عاما والتى تبدو فى الأربعين بل أحاتها بخديجة الناحلة الرشيقة ذات الابتسامة المتألقة والتى لا تعدو الخامسة عشر من عمرها .

وعلى المرآة تألق وجه آخر كان قد اندثر طويلا الا من مرات معدودة تعاودها من الحين والآخر ، وخاصة فى مثل تلك الأيام من كل عام . لكنه اليوم بدا قاسيا فى ظهوره ، المقترن بفتاتها الوحيدة منى السمراء الندية ذات العينين الحصراوين والابتسامة المتألقة وابتسمت خديجة فى راحة ، ان منى تتميز عنها بشيء مهم أصيل فى النفس وهو العناد المقرون بالثقة فى النفس ولكن ترى لو تعرضت منى لظروف مثل ظروفها هل تستطيع الاستفادة من هذا العناد وتلك الثقة بالنفس ؟ وجرت خديجة أقدامها من أمام المرآة لتذهب الى ركن مظلم فى حجرة الصالون وفى الهدوء الحالم المخيم على بيتها الخالي جلست فى أمان ، وهى تشد من خيالها الوجه الآخر الذى اندثر طويلا وكان يعاودها فى مثل تلك الأيام من كل عام .. حسين ..

لم يكن حسين وسيما ولا عملاقا مهيبا لكنه كان فتى أسمر اللون .. حسن المظهر وان كان مرهف الحس الى درجة كبيرة وأحست خديجة بروحها تفيض حنانا وهى تتذكر طفولتها وأيام صباها المبكر وكيف التقت مشاعرها بمشاعر حسين ابن الجيران منذ الطفولة وذاك الصبا المبكر لكنهما لم يدريا شيئا عن هذه المشاعر الا أنها كانت تلجأ اليه دائما عندما يضيق أحد من الصبية الخناق عليها أو تختطف احداهن من يدها لعبة وكان يحميها دائما ويقف بجانبها ... ثم بعد ان شبا عن الصبا وصارا يشعران بالعيون من حولهما .. وهى مشاعرهما التى كانت تهيىء لهما هذا الخوف .. أصبحا يحرصا على أن يختطفا نظرة عابرة أثناء ذهابهما الى المدرسة ولا شيء غير هذا .. أما الأيام التى كانا ينتظرها دائما بفارغ الصبر فهى تلك الايام التى تسبق عيد الفطر عندما تجمعهما ساحة المخبز المزدحمة بصاجات الكعك ورغبة أمهاتهما على أن يشرف كل منهما على نضج الكعك .. وهزت خديجة رأسها واعتدلت فى جلستها وهى تحس بالسعادة التى كانت تحسها فى تلك الليالى البعيدة من خلال النظرات المتبادلة بينها وبين حسين والحنان المتدفق الذى كان يلفهما

.. وزحف الأيام والليالى حتى كانت فى الخامسة عشر وكان حسين فى الثامنة عشر .. وفى ليلة وهما فى هذا العمر حدثها حسين لأول مرة عن أمله عندما يختار امتحان الشهادة الثانوية وبعد أن يلتحق بالجامعة وكانت تطير فرحا وهى تتخيل تحقيق هذا الأمل لعلهما معا .. وحدثها طويلا سيجعلها تواصل دراستها حتى نهاية المرحلة الجامعية سيكون لهما بيت صغير سيخرجان دائما معا يمرحان ويلهوان . ستكون لهما ابنة واحدة .. لا بل ابن وابنة . وعاشا فى هذا الحلم باقى الليل ..

واستعادت خديجة تلك الليلة بكل ما حدث فيها منذ بدأت أقدامها تخطو وراء خادميهما المحملان بصاجات الكعك فى طريق العودة وكل ما حولها هادىء ساكن فالساعة أشرفت على الثانية صباحا وقاربت ليالى رمضان على انتهاء الشهر .. فالكل يستعد للعيد القادم وخلت الطرق الا من عدد قليل من الناس واحست خديجة وكان القضاء لها وحدها هى وحسين فى تلك الليلة ـ ويسرى فى خبايا نفسها فهى لم تشعر بدفء الصقيع فى حياتها كما شعرت به ليلتها ولم تر أحلى من ظلامها ولم تسمع الحانا مثل وقع خطواتهما .. ضاعت الكلمات بين شفتيهما .. لم يتبادلا ولا كلمة واحدة طوال الطريق لكنهما أحسا وقد همسا بكل حديث الزمان وانهما قد عاشا منذ بداية الحياة وستظل حياتهما الى مالا نهاية وفجأة وجدا نفسيهما أمام باب منزل خديجة. انتهى الطريق سريعا وتوقفت أقدامهما ثم أحست يده تبحث عن يدها كى يتمنى لها مساء سعيدا فى تلك اللحظة دوى صوت غليظ .. خشن يصرخ فى ذعر واستنجاد ...

وقد بدأ فى هذا الظلام الحالك وكأنه ينذر بنهاية الحياة .

اللص .. اللص .. امسك اللص . وافترقا فى الحال كل فى جانب من الباب الكبير وانتحى الخادمان .. جانبى الجدران فى اللحظة التى اندفع فيها رجل طويل عريض فى جلباب ابيض يهرول مسرعا وهو يردد صارخا ..

اللص.. اللص.. امسك.. اللص.

ثم بدأ الجسم المندفع يتريث قليلا وهو يتلفت يمينا ويسارا ثم توقفت أقدامه فى الوقت الذى تجمع فيه عدد قليل من الناس والكل يؤكد انه لم ير أحدا يجرى هنا أو هناك والرجل يؤكد انه قد سمع حركة غريبة مصدرها احدى شرفات مسكنه القريب من أرض الشارع .

لم يعن خديجة وجود اللص أو عدم وجوده .. كل ما احست به أسف كبير ملأ نفسها بعد أن ذهبت الصحبة وذهب عنهما حسين فى سكون وهو منكس الرأس وجرت أقدامها وراء خادمتها فى الوقت الذى اندفع فيه صاحب الصوت الخشن الغليظ الذى كان يصرخ منذ لحظات عائدا الى البيت .. انه الساكن الجديد الذى نقل حديثا من احدى بلاد الوجه البحرى جاء كمعاون لمكتب الصحة القريب منهم كانت المرة الأولى التى تراه فيها واستدار صاعدا الدرجات القليلة الموصلة الى الدور الذى يسكنه ثم أسرع باضاءة المصباح الكهربائى الذى يعلو باب مسكنه ليبين باقى الدرجات أمامها ونظرت اليه وهى تشكره فى حياء .. كان رجلا طويل القامة عريضها أبيض البشرة وسيما مهيبا وقورا .. فى نحو الاربعين من عمره وقرأت اللوحة

النحاسية على باب الشقة .. السيد مصطفى السيد لحظتها لم تتساءل لماذا لا تمعن فيها جيدا كان كل ما يعنيها فى تلك اللحظة أن تصعد فورا الى مسكنها حتى تؤوب الى فراشها سريعا كى تستعيد كلما ما همس به حسين اليها وقطعه هذا الرجل بصياحه المفاجىء .. وفى سكون امتدت يدها اليسرى الى

يدها اليمنى تعطيها فى حنان وكادت تهمس لنفسها بمساء سعيد وهى ترى الدرجات وقد استمالت كلها الى صورة واحدة . حسين فى كامل حنانه وكما لم تره أبدا من قبل .. الآن فقط عرفت حديجة لماذا أحيانا كثيرة تؤتى هذه الحركة ولماذا ظلت وقتا طويلا كلما تطلعت الى زوجها السيد مصطفى السيد اقترنت طلعته المهيبة فى عينيها بصوته الحشن الغليظ وهو يرن فى أذنيها بتلك

الصيحة المفاجأة في تلك الليلة البعيدة

اللص .. اللص امسك اللص .

عادت خديجة الى نفسها .. ووجدت أقدامها مرة أخرى لتجول داخل شقتها لترى ماذا ينقصها وتوقفت أقدامها هذه المرة أمام المرآة الكبيرة ، مرآة الدولاب وتمعنت في هيئتها طويلا انها الآن وبعد خمسة عشرة عاما أصبحت لا تختلف كثيرا عن زوجها انها عرفت كيف تشاركه حياته وعمره أيضا .. أما خديجة الصغيرة . النحيلة الرشيقة . وامتلأت الجدران أمامها بصورة أخرى . منى الصغيرة ذات العينين الخضراويين والعناد المعروف بالثقة بالنفس بنت الجيل الذي يعرف تماما موضع اقدامه وطرقه تساعده ومع ذلك من يدري ونظرت في ساعة الحائط .. انها تشير الى الثانية عشر ومعناه أن منى في طريق العودة الى البيت واستعادت صورتها وهي تمسي بأناقتها قبل خروجها الى المخبر ولم تنتظر خديجة طويلا .. ارتدت ثيابها على عجل دون أن يحول بخلدها ان ميعاد أوبة زوجها أزف ولم تفكر ماذا سيكون جوابها لو قابلها في الطريق كل ما كان يملك عليها تفكيرها الآن أن تسرع لتعود بابنتها لتكون بجانبها في طريق العودة .. انها لا تدري خديجة بالضبط ماهو الدافع لكل هذا .. لم تستطع التحديد لابد أن تكون بجانبها وكفى ... ربما تريد أن تستعيد تلك اللحظات التي فقدتها من زمن بعيد لاتستطيع التحديد أيضا ومع ذلك كانت ينتشر في خيالها شارع عريض مظلم وأقدام شابة تخطو في أنغام وراء خادمين يحملان صاجات الكعك وأنفاس بكر تضيء كل ما حولها ومفاجأة واضحة ربما تحدث في الطريق .

ومن بعيد لمحت خديجة الموكب يتوسط الشارع المظلم العريض .. تماما كما هو موجود في ذهنها وكما عاشته من قبل وعرتها رجفة سريعة وأحست وهي تحاول السيطرة على خفقان نفسها وكان شعاعا من الحنان يتسرب من روحها ليطوق الصغيرين السعيدين ـ فجأة وجدت منى أمها أمام عينيها لا تبعد عنها غير خطوات قليلة .. توقفت القلوب الفتية وتوقفت الاقدام الشابة لتسأل منى أمها في لهفة وخوف ..

هل حدث شيء .. ؟

وتكلمت خديجة ذات الطلعة المهيبة زوجة السيد مصطفى السيد

ما سبب كل هذا التأخير ..؟

وصعدت في الحال موجة الحدة والتمرد الى نبرات منى وهي تجيب أمها في اقتضاب .

ـ كان الزحام شديدا .

واشارت الأم بطرف ذقنها وصوتها يخرج حازما حادا .

ومن هذا ... ؟

وفي ثبات وصلابة وبكل ملامحها السيدة الواثقة أجابت منى ..

انه هشام .. جارنا الجديد

وصعدت نظرات الام القامة الفارعة انه يختلف عن حسين في طول القامة وأيضا في الملامح وأيضا في العينين الواسعتين والشفتين الدقيقتين اللتين يضغطهما في حدة مما يؤكد انه انسان صلب الارادة وانه لن يتنازل عن ابنتها بسهولة انه هذه الخصلة من الشعر الاسود الناعم النافر الذي يغطي طرفا من جبهته

العريضة المرتفعة فى شموخ يؤكد ذلك .. وحاولت التسلط على ابنتها ولكن منى أشاحت بوجهها بعيدا عن أمها فى عزة وتماسك رغم الدموع التى كانت تطفر من عينيها الخضراوين .. غيظا وألما .. وتحرك الموكب مرة أخرى فى الظلام .. الخادمين أمامها وعلى رأسيهما صاجات الكعك يسيران فى امتثال وطاعة والأم فى خطوات جادة وملامح حادة وقامة منتصبة ونظراتها القوية مسلطة على الطريق فى كبرياء أما فى الداخل فكانت هناك انسانة أخرى هى خديجة الصغيرة النحيلة ذات الخمسة عشر ربيعا وقد تصورت نفسها تتحول فجأة الى ملاك بأجنحة يرفرف على القلبين الشابين ليحرس لهما الطريق المظلم ويحميهما من مفاجآته وكانت تهمس لنفسها بين فينة وأخرى ... حمدا لله أن الجار الجديد هو هشام .. فى صلاته تلك .

وأما منى الصغيرة فكانت كقطعة من اللهيب تكاد تشق أرض الشارع بأقدامها الثائرة وقد راحت تنظر الى أمها من حين الى آخر نظرات حانقة ساخطة وهى تراها تسير بجانبها وكأنها قد اكتست معطفا من الصوف الأصفر الخشن وطربوشا طويلا بنى اللون عليه من الأمام لوحة حمراء مرقعة مستديرة مرقعة وقد نبت لها فجأة شارب غزير كثيف له أطراف مرتفعة وعلى كتفيها ترنط بندقية ترتطم بالارض مع وقع أقدامها التى حولت هدوء الليل الى صخب مقيت ...

أما هشام الفتى الذى لم يتجاوز بعد عامه السادس عشر .. الشاب الصغير الذى خفق قلبه لأول مرة فى عنف وجنون فقد أحس بقامته التى كان يفخر دائما ببنيانها المتين وقد اهتزت تماما أمام هذا الهجوم السريع على لحظاته التى ظن أن لأحد يملكها غيره .. كانت عيناه مسلطة على ظهر حبيبته ثم انتقلت الى ظهر أمها ورآها فى الحال وقد تحول معطفها الأسود الى عباءة طويلة سوداء وقد خيل له أن رأسها مغطى بقناع اسود أيضا وانها لاتختلف اطلاقا عن أحد أعضاء منظمة (الكوكس) وأراد أن يبلغ ابنتها هذا .. لابد من ابداء رأيه وفى الحال .. ما سبيل الى ذلك .. كيف يهمس اليها بأن أمها لاتختلف أبدا عن أى قرصان من قراصنة البحار كانت يداه داخل جيبى سترته وأصابع يده اليمنى تعبث بقطعة الطباشير التى كان يكتب اسمه بها على صاجات الكعك كى يعرفها عن غيرها .. وأوحت اليه قطعة الطباشير بالفكرة عمل ذهنه البالغ من العمر ستة عشر عاما على تنفيذها فى الحال كى يبلغ حبيبته رأيه فى أمها .. أسرع الفتى فى خطواته حتى تجاوز الجميع ثم أسرع أكثر حتى سبقهم الى باب البيت وعلى الجدران امتد اصبعه بقطعة الطباشير ليرسم فى حدة رغم الراحة التى بدأت تسرى فى نفسه .. خطوطا سريعة كونت فى الحال صورة **جمجمة تعلوها عظمتان متقابلتان وفوقهما خط هذه الكلمات . القرصانة السوداء** . .. ورفع يده بالمصباح الكهربائى الصغير ليسلطه على الجدران . قد رأت الأم كل هذا لكنها لم تفطن الى معناه أما منى فقد عرفت ماذا يقصد وهزت له رأسها وهى توافقه وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة رقيقة .